مجلة المجمع العلمي العربي

الجزء الثاني عشر كانون الاول سنة ١٩٤١ ذو القعدة سنة ١٣٦٠

العناصر الاجنبية في الاسلام (١)

أدخل الاسلام في حظيرته أذكياء من أجيال الناس ، وأهل الملل والأديان القديمة ، تمثلوا تعاليمه وخدموه أجلّ خدمة . وكان للموالي أثر عظيم في نقل الشريعة وبثها ، حتى جاء زمان وعدد الموالي القائمين على بث العلم أكثر من عدد العلماء الذين كانوا من أصول عربية لا تشوبها شائبة العجمة . ونحن في هذا الحديث نكتفي بالالماع الى ثلاثة عظماء جاء الأولان في القرن الثالث وهما ابراهيم الحربي وابو عبيد القاسم بن سلاّم وجاء الثالث في القرن السابع وهو ياقوت . كانت أم ابراهيم الحربي تغلبية « وأخواله نصارى اكثرهم » قالوا لم تخرج بغداد أعلم منه . قال صاحب تاريخ بغداد كان إماماً مصنفاً ، عالماً بكل شيء ، بارعاً في كل علم ، عارفاً الفقه ، بصيراً بالأحكام ، حافظاً للحديث ، مميزاً لعلله ، قيماً بالأدب ، جماعة للغة ، وصنف كتباً كثيرة ، وكان يقاس بأحمد بن حنبل في زهده وعلمه وورعه . جاءه رجل من اصحاب الخليفة المعتضد بعشرة آلاف درهم ، يسأله عن أمر أمير المؤمنين تفرقة ذلك فرده ، فانصرف الرسول ، ثم عاد فقال : ان امير المؤمنين يسألك أن تفرقه في جيرانك ، فقال عافاك الله ؟ هذا مال لم نشغل أنفسنا بجمعه فلا نشغلها بتفرقته ، قل لأمير المؤمنين : إن تركتنا والا تحوّلنا من جوارك !

حدث القاسم بن الحنبلي قال : اعتلّ ابراهيم الحربي علة حتى أشرف على الموت :

(١) من حديث للاستاذ محمد كرد علي ألقي في مذياع بيروت (رادیو الشرق)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فدخلت اليه يوماً فقال لي : يا ابا القاسم أنا في أمر عظيم مع ابنتي ، ثم قال لها : قومي اخرجي الى عمك ، فخرجت فألقت على وجهها خمارها ، فقال ابراهيم : هذا عمك كليه . فقالت لي : ياعمّ نحن في أمر عظيم ، لافي الدنيا ولا في الآخرة ، الشهر والدهر مالنا طعام إلا كسر يابسة وملح ، وربما عدمنا الملح ، وبالأمس قد وجه اليه المعتضد مع بدر الف دينار فلم يأخذها ، ووجه اليه فلان وفلان فلم يأخذ منها شيئاً ، وهو عليل . فالتفت الحربي اليها وتبسم فقال لها : يا بنية إنما خفت الفقر ؟ قالت : نعم ، فقال لها : انظري الى تلك الزاوية فنظرت فاذا كتب . فقال : هناك اثنا عشر الف جزء لغة وغريب كتبتها بخطي ، اذا مت فوجهي في كل يوم بجزء تبيعيه بدرهم ، فمن كان عنده اثنا عشر الف درهم ليس هو فقير !

* * *

كان والد القاسم بن سلام مملوكاً رومياً لرجل من هراة من عمل خراسان فنشأ ابنه نشأة اسلامية عربية . وكأن أباه شعر بذكاء ابنه فقال يوماً برطانته العجمية لمعلم الكتاب الذي يتعلم فيه ابنه مع ابن مولاه : « علمي القاسم فانها كيسة » . ونبغ قاسم وعُرف في خراسان فضله ، فعهد اليه بعض الخاصة تأديب بنيهم ، على عادة العلية من الناس في تلك الأيام ، يدفعون الى العلماء اولادهم ليثقفوهم ويهذبوهم . ونزل طاهر بن الحسين شيخ قواد المأمون مَرْوَ حين مضى الى خراسان ، فطلب رجلاً يحدثه ليلة ، فقيل له ما ههنا إلا رجل مؤدب ، فأدخل عليه ابو عبيد القاسم بن سلاّم ؛ فوجده اعلم الناس بأيام الناس والنحو واللغة والفقه فقال له : من الظلم تركك أنت بهذا البلد . فدفع اليه الف دينار وقال له : انا متوجه الى خراسان الى حرب ، وليس أحب استصحابك شفقةً عليك ، فأنفق هذا الى ان أعود اليك . ولما عاد حمله معه الى مُرَّ مَنْ رأى ودخل بغداد .

وظلّ ابو عبيد على وَلائه لآل طاهر بن الحسين ، وأعلى ابنه عبد الله بن طاهر منزلته ، وهو من اعاظم قواد الخليفة المأمون ايضاً . وكان ابو عبيد اذا الف كتاباً أهداه الى عبد الله بن طاهر ، فيحمل اليه مالاً خطيراً استحساناً لذلك ، ولما انجز

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كتابه « الغريب المصنف » وكان صرف في تأليفه ثلاثين سنة عرضه على عبد الله بن طاهر فاستحسنه وقال : « إن عقلاً بعث صاحبه على عمل مثل هذا الكتاب لحقيق ألا يُحوج الى طلب المعاش » فأجرى له عشرة آلاف درهم في كل شهر أي الف دينار. وعمل كتابه « غريب الحديث » للمأمون وما ندري بما كافأه عليه ، إن كان احد عماله يجري عليه في كل شهر الف دينار .

أدّب ابوعبيد في بغداد غلاماً في شارع بشر وبشير ، واتصل بعد بثابت بن نصر ابن مالك الخزاعي يؤدب ولده ، وأدب ايضاً ابناء هرثمة ، ولعله هرثمة بن اعين اعظم قواد المأمون وثقاته ، ولما ولي ثابت بن نصر الثغورَ ودامت ولايته ثماني عشرة سنة ، كان ابو عبيد يتولى قضاء طرسوس طول تلك المدة ، وحسن أثره فيها كما حسن أثر صديقه واليها .

وذكروا ان ابا عبيد لما كان في أسباب عبد الله بن طاهر بعث ابو دُلف القاسم بن عيسى العجلي احد ائمة البلاغة يستهديه أبا عبيد شهرين ، فأنفذه اليه ، فأقام شهرين في الكرج ، وهي مدينة بين همذان واصفهان ، مصرها ابو دُلف وجعلها وطنه ، وقلده الرشيد اعمال الجبل فلم يزل عليها الى ان توفي سنة ٢٢٥ واليها قصده الشعراء وذكروه في اشعارهم — ولما اراد الانصراف وصله ابو دُلف بثلاثين الف درهم فلم يقبلها . وقال: انا في جنبة رجل لم يحوجني الى صلة غيره . فلما عادالى ابن طاهر وصله بثلاثين الف دينار فقال : أيها الأمير قد قبلتها ، وقد اغنيتني بمعروفك وبرّك ؛ فرأيت ان اشتري بها سلاحاً وخيلاً وأوجه بها الى الثغر ليكون الثواب متوفراً على الأمير ، ففعل .

وهكذا عاش ابو عبيد بين أشراف القادة والسادة ، يعرف لهم مقامهم ويعرفون له قدره ، يتهادونه ويبرونه ، ويرغبون في الأخذ عنه ، ويعهدون اليه في تخريج ابنائهم. اما هو فلم تبطره الدنيا ، ولم تخلب لبه المظاهر ، واشتهر بورعه وعفته وكرم نفسه وجوده ، حتى قيل فيه لو كان ابو عبيد في بني اسرائيل لكان عجباً . قالوا إنه كان يقسم الليل اثلاثاً ، فيصلي ثلثه ، وينام ثلثه ، ويصنف ثلثه . وكان فاضلاً في دينه وعلمه ربانياً قانتاً مفنناً « في اصناف علوم الاسلام ، صحيح النقل لم يطعن عليه في شيء من امره ودينه »

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

شهد اعلام الناس بعلمه ، ومنهم اسحق بن راهويه قال : يحب الله الحق ، ابو عبيد اعلم مني ومن احمد بن حنبل ، ومن محمد بن ادريس الشافعي . وقال بعضهم : إنه لم يكن عنده ذاك البيان ، إلا انه كان اذا وضع وضع . وقال ابراهيم بن الحربي : رأيت ثلاثة تعجز النساء ان تلد مثلهم . رأيت ابا عبيد ما أمثله إلا بجبل نُفخ فيه روح ، ورأيت بشر بن الحرث فما اشبهه إلا برجل عُجن من قرنه الى قدمه عقلاً ، ورأيت احمد بن حنبل فرأيت كأن الله قد جمع له علوم الأولين من كل صنف ، يقول ما يشاء ويمسك ما يشاء .

وسئل يحيي بن معين صاحب الجرح والتعديل — وهو الذي قال فيه احمد بن حنبل كل حديث لا يعرفه يحيي بن معين فليس هو بحديث عن الكتابة عن ابي عبيد والسماع عنه ، فتبسم وقال : مثلي يُسأل عن ابي عبيد ؟ ابو عبيد يسأل عن الناس . لقد كنت عند الأصمعي يوماً اذ اقبل ابو عبيد . فنفذ اليه بصره حتى اقترب منه ، فقال : أترون هذا المقبل ؟ قالوا : نعم . قال : لن تضيع الدنيا — او لن يضيع الناس ما حيي هذا المقبل . وقال عبد الله بن طاهر . كان الناس اربعة : ابن عباس في زمانه والشعبي في زمانه ، والقاسم بن معن في زمانه ، وابو عبيد القاسم بن سلاّم في زمانه . وذكره الجاحظ في المعلمين وقال : كان مؤدباً لم يكتب الناس اصح من كتبه ، ولا اكثر فائدة .

غلب على ابي عبيد جمع المتفرق في الكتب وتفسيره ، وذكر الأسانيد ، وصنف المسند على حدته ، واحاديث كل رجل من الصحابه والتابعين على حدته ، واجاد تصنيفه فرغب فيه اهل الحديث والفقه واللغة ، لاجتماع ما يحتاجون اليه فيه . قالوا ان الناس رووا عن ابي عبيد بضعة وعشرين كتاباً في القرآن والفقه وغريب الحديث والغريب المصنف والأمثال ، وعانى الشعر ، وكتابته كتابة ارقى المؤلفين في القرن الثاني والثالث . والغريب المصنف زعموا انه اجلُّ كتبه ، وقالوا ان كتابه « الأموال » وهو المطبوع الذي نجا من التلف من جميع كتبه ، هو احسن ماصنف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في الفقه واجوده . و كتاب الاموال صورة ناطقة بعلمه الواسع ، وتحقيقه وتدقيقه ، يرجح من الاقوال ماهو أولى بالترجيح ، ويبين عن رأيه في أحكام الأموال وصنوفها ، آخذاً بالأقوال الصحيحة المأثورة عن صاحب الشرع ، ومشيراً الى عمل الصحابة والتابعين من بعده ، والى ما استخرجه الحكام والملوك من هذه الأموال بعد ذلك ، وفي كل أولئك يتجلى للقارئ نور العقل ، وبُعد النظر ووفرة العلم .

* * *

أما الرومي الثاني ياقوت فقد نفع التاريخ والجغرافية والادب بما نقل وحرر وبوب وصنف ، و كان مولد ياقوت عبد الله شهاب الدين في بلاد الروم سنة ٥٧٤ وأخذه المسلمون اسيراً وهو طفل واشتراه في بغداد تاجر يعرف بعسكر الحموي فنسب اليه فقيل له ياقوت الحموي كما قيل له الرومي وجعله سيده في الكتاب يتعلم ما يستفيد هو منه في ضبط متاجره وقرأ شيئاً من النحو واللغة وشغله مولاه بالأسفار وفي سنة ٥٩٦ أعتقه فاشتغل بالنسخ بالاجرة وحصل بالمطالعة فوائد . ودعاه مولاه القديم فأعطاه شيئاً وسفره الى كيش وعُمان ولما عاد من سفرته كان سيده قد مات فأعطى أولاده وزوجته ما أرضاهم به وبقيت بيده بقية جعلها رأس ماله وسافر بها وجعل بعض تجارته كتباً ، وسهل عليه ان يطوف الشام والعراق والجزيرة وخراسان واستوطن مرو ودخل خوارزم وجاء البلاد ما بين جيحون والنيل . وشهد غارات التتر في خراسان ايام كونه فيها ووصف أعمالهم في بلاد الاسلام وفقد ثروته غير مرة فعدّ من المفلوكين .

قيل انه كان طالع شيئاً من كتب الخوارج فاشتبك في ذهنه منها طرف قوي ، وتوجه الى دمشق في سنة ٦١٣ وقعد في بعض أسواقها وناظر بعض من يتعصب لعلي وجرى بينهما كلام أدى الى ذكره علياً بما لا يسوغ فثار الناس عليه ثورة كادوا يقتلونه فسلم منهم ، وخرج من دمشق منهزماً الى حلب وأقام فيها مدة عند وزيرها القفطي فأهداه كتابه معجم البلدان وفي حلب مات سنة ٦٢٦

ويدرك المرء بعد هذه الالمامة اليسيرة بسيرة ياقوت كيف ساعدته الاقدار

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فدرس الكتب واستفاد من نسخها وزاده تنقله في البلاد توسعاً في المعارف فاطلع على مالم يطلع عليه غير قلائل من المؤلفين فكان ذلك مما ضاعف الامتاع بكتبه فكتب لها البقاء لحاجة الناس اليها ، ولأن صاحبها كتبها عن درس ومشاهدة وخبرة ، ويمتاز على غيره بأنه عرف جزءاً عظيماً من بلاد الاسلام معرفة اكيدة وأدرك الرجال والقي شيوخ عصره .

كان ياقوت رقيق العاطفة مرهف الحس دؤوباً على العمل يحمل نفساً زكية دراكة . كان صريحاً في قوله لا يداهن ولا يصانع يقول ما يعلم وان اغضب وارضى ، فيه صدع العلماء بالحق وصدق الصادقين من الرواة . قال عن نفسه اني كنت قدمت نيسابور في سنة ٦١٣ وهي الشاذياخ فاستطبتها وصادفت بها من الدهر غفلة خرج بها عن عادته واشتريت بها جارية تركية لا ارى الله تعالى خلق احسن منها خلقاً وخلقاً ، وصادفت من نفسي محلاً كريماً ، ثم أبطرتني النعمة فاحتجبت بضيق اليد فبعتها فامتنع علي القرار ، وجانبت المأكول والمشروب حتى أشرفت على البوار ، فأشار عليّ بعض النصحاء باسترجاعها فعمدت لذلك واجتهدت بكل ما امكن فلم يكن الى ذلك سبيل لأن الذي اشتراها كان مولاً ، وصادفت من قلبه أضعاف ما صادفت مني ، وكان لها ميل اليّ يضاعف ميلي اليها فخاطبت مولاها في ردها عليّ بما أوجبت به على نفسها عقوبة فقال في ذلك قصيدة يصف الحال تقرؤها في مادة شاذياخ من معجم البلدان

ثلاثة كتب طبعت لياقوت اشتهر بها وخلد ذكره (معجم البلدان) و (المشترك وضعاً والمختلف صقعاً) و « ارشاد الاريب الى معرفة الاديب » . اوطبقات الادباء ، وكلها مما أحياه المستعربون من الغربيين لهذا الرومي المستعرب العظيم .

رتب المؤلف معجم البلدان على حروف المعجم وذكر فيه اسماء البلدان والجبال والاودية والقيعان والقرى والمحال والأوطان والبحار والأنهار والغدران والاصنام والاوثان معتمداً في تأليفه على من كتب قبله في تقويم البلدان من العرب وعلى اللغويين ودواوين العرب والمحدثين وتواريخ أهل الادب والنقط من افواه الرواة وتفاريق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الكتب وما شاهد في أسفاره وحققه بنفسه من اسماء البلدان ما عظمت به فائدته .

كان ياقوت محتاطاً فيما ينقله عن غيره قال مثلاً في احدى المدن : ولها قصة بعيدة من الصحة لمفارقتها العادة وانا بريء من عهدتها انما اكتب ما وجدته في الكتب المشهورة التي دونها العقلاء . وقال فيما نقل عن الصين « وهذا شيء من أخبار الصين الاقصى ذكرته كما وجدته لا أضمن صحته ، فان كان صحيحاً فقد ظفرت بالغرض ، وان كان كذباً فتعرف ما نقوله الناس فان هذه البلاد شاسعة مارأينا من مضى اليها فأوغل فيها وانما يقصد التجار اطرافها » وكأنه بما ينقل من الاوهام والخرافات يحاول ان لا يخلي كتابه من كل أطروفة ولو كانت سخيفة ، ليستفيد منه الجاهل ويتفكه به العالم ، ويزيد به المتعلم الاديب درساً ، وقد توسع خاصة في الكلام على المدن التي أنشأتها العرب .

حرص في معجم البلدان على الالمام باخبار فتوح البلاد وعمرانها واموالها ومرافقها وعادياتها واخلاق اهلها ومن خرج منها من المشاهير وما وقع فيها من الوقائع التاريخية وما قيل فيها من الاشعار البديعة ، فأمتع قارئه بكل مفيد حسب ما وصل اليه علمه ، ووقع عليه في كتاب او استقراه بنفسه ونقله عن الثقات . وهذا جماع مافي معجمه مما أدركه في عصره او اقتبسه من الاصول المتقنة في خزائن مرو قال : « كانت سهلة التناول لا يفارق منزلي منها مائتا مجلد واكثر ، وبغير رهن ، تكون قيمتها مائتي دينار فكنت ارتع فيها واقتبس من فوائدها وانساني حبها كل بلد والهاني عن الاهل والولد واكثر فوائد هذا الكتاب (معجم البلدان) وغيره مما جمعته فهو من تلك الخزائن ، وما كان له ان يفارق مرو لولا ورود التتر الى تلك البلاد .

ومن معجم البلدان فقط يتألف ديوان لطيف من المقاطيع والقصائد التي استشهد بها وكتاب في عجائب البلدان والخليقة واخلاق الناس وعاداتهم ودرجة الرفاهية والثروة في عصره او قبل عصره . ويفيض في كلامه على الحواضر يذكر من خرج منها من الاعيان ولا سيما رجال الحديث وقد تظفر فيه بتراجم مطولة لرجال

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أغفل اكثر مصنفي الطبقات ذكرهم . وهو كتاب خاص ببلاد الاسلام والشرق كتب بكثير من الاحتياط والتحفظ اذا وقع التنظير بين ما نقله وما نقله المؤلفون في عصره وبعد عصره . فقد قال في الروم مثلاً « وفي اخبار بلاد الروم اسماء عجزت عن تحقيقها وضبطها ، فليعذر الناظر في كتابي هذا ، ومن كان عنده اهلية ومعرفة وقتل شيئاً منها علماً ، فقد أذنت له في اصلاحه مأجوراً » وهذا ديدن العلماء في القديم والحديث يدعون العارفين الى تصحيح هفواتهم او الى تقدم للوصول الى الحقائق .

أما كتاب « المشترك وضعاً والمفترق صقعاً » فقد انتزعه بنفسه من معجم البلدان واقتصر فيه على ما اتفق من اسماء البقاع لفظاً وخطاً ووافق شكلاً ونقطاً وافترق مكاناً وعملاً ، توفيراً لوقت المطالع الذي يحب السرعة في تلقف الفوائد ، وبعداً به عما ذكره في معجمه الكبير من الاشتقاق والشواهد والنكت والفوائد والاخبار والاشعار . ودعا ياقوت على من يختصر بعده كتابه معجم البلدان وما نجا مع هذا من أناس حاولوا اختصاره ، ومنهم صفي الدين عبد المؤمن اختصره وسماه « مراصد الاطلاع » .

بقي ان نطلق القول في كتاب ياقوت الثالث وهو « ارشاد الاريب الى معرفة الاديب » وفيه جمع ما وقع اليه من أخبار النحويين واللغويين والنسابين والقراء المشهورين والاخباريين والمؤرخين والوراقين المعروفين والكتاب المشهورين واصحاب الرسائل المدونة وارباب الخطوط المنسوبة وكل من صنف في الادب تصنيفاً ، مثبتاً وفياتهم ومواليدهم وتصانيفهم واخبارهم وأنسابهم وأشعارهم . قال فأما من لقيته أو لقيت من لقيه فأورد لك من أخباره وحقائق أموره مالا اترك لك بعده تشوقاً الى شيء من خبره وانه جمع للبصريين والكوفيين والبغداديين والخراسانيين والحجازيين واليمنيين والمصريين والشاميين والمغربيين وغيرهم على اختلاف البلدان وذلك على حروف المعجم أيضاً . وقال في الاعتذار عن نفسه ولمن يقول له ان الاشتغال بأمر الدين أهم ، ان هذه اخبار قوم عنهم أخذ القرآن والحديث وبصناعتهم تنال الامارة ويستقيم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أمر السلطان والوزارة وبعلمهم يتم الاسلام ، وباستنباطهم يعرف الحلال من الحرام ، وان كتابه هذا هو علم الملوك والوزراء والكبراء يجعلونه ربيعاً لقلوبهم ونزهة لنفوسهم .

قال وربما قال بعضهم انه (معجم الادباء) تصنيف رومي مملوك وما عسي ان يأتي به ؟ ان القوم لا ينظرون ما قيل انما يسألون عمن قال . ولو عاش ياقوت ورأى اليوم بعد ان أتى على كتابه سبعة قرون كيف اشتهر كتاباه معجم البلدان ومعجم الادباء لا يستغني عنهما باحث ولا أديب وأثبتت الايام انهما من الكتب التي حوت كل طريف مفيد تزيد على القرون حسناً لاغتبط وأدرك أن ما كان يقدر ان الناس يقولونه في كتبه قالوه في امثاله في كل عصر ثم ذهب لغط القوالين والطاعنين وثبت علم العالمين والمتأدبين الباحثين .

محمد كرد علي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net